المبحث الثالث

وضع الأمة الإسلامية وتحديات الواقع الدولى

معانى الأمة فى القرآن الكريم:

استخدم القرآن الكريم كلمة "أمة" فى سياقات مختلفة. منها فى السياق الطبيعى السوسيولوجى ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ فالأمة هنا هى مجموع المسلمين فى كل مكان على الخريطة وهو المعنى الذى قصده الحديث الشريف من أن الدخول فى الإسلام يصنع أمة متراحمة ومترابطة ومتعاونة، فأحل رباط الإيمان برباط القواسم المشتركة فى الثقافة واللغة والعيش المشترك، وإن كان معنى الحديث حينذاك منصرفا إلى تجمع المسلمين لملاقاة الكفار فى مكة والمدينة، ولكن النصوص القرآنية والأحاديث وإن ارتبط بعضها بسياق معين، إلا أنها تظل وتتجاوز المعنى الذى نزلت به. "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى." وقد استخدم مصطلح "المؤمن" لكى يشمل، فيما نعتقد، كل المؤمنين حقا بالشرائع الأخرى على أساس أن الدين واحد والإسلام واحد.

المعنى فى قوله تعالى ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ ويشير إلى أمة محمد التى يجب أن تشمل بقية الأمم وشرائع أخرى واستجابت للأنبياء والرسل السابقين الذين دعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد. ويفهم من الأية وكما فى آيات أخرى ستأتى كل أمة ومعها نبيهم

يوم القيامة وتأتى أمة محمد ومعها رسولها، لكى يكون شهيدا على من سبقه من الأنبياء والرسل، وعلى أمته، التى ستكون شهيدة على الأمم الأخرى. ولذلك أكد القرآن من أجل عدالة الحساب على أن الله أرسل لكل قوم نبيا منهم وسيسأل خزنة جهنم المكذبين يومها ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ فالأمة فى هذا السياق هى أتباع كل نبى ورسول.

وفى معنى ثان هو النوع من المخلوقات كما فى قوله تعالى ﴿**إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ وهم يسبحون ولكنكم لا تفقهون لغتهم، فلكل نوع من المخلوقات، الجماد، والحيوان والنبات لغة يتواصلون بها. وكان سليمان هو الذى أنعم الله عليه بأن علمه لغات المخلوقات، الطير، والحشرات والجن وغيره، وسخرها له، بما فى ذلك الريح رخاء لينة فى يده ووفق تعليماته.

فى معنى ثالث استخدم القرآن مصطلح الأمة للدلالة علي الزمن والمدة كما فى قوله عن صاحب يوسف الذى كان سجينا معه وأوصاه يوسف أن يذكر الملك بسجنه، مادام قد أنبأ يوسف بتأويل رؤياه بأنه سوف يكون ساقى الملك. فاعتمد يوسف على هذا الصاحب ونسى أن الله يرقبه وهو الذى يذكر به وأبقاه فى السجن لحكمة يعلمها فقال سبحانه ﴿**وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾" والأمة هنا فترة من الزمن طالت أم قصرت.

وفى معنى رابع الأمة هى القوم لقوله تعالى ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا**﴾

وفي معني خامس إ﴿**نَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ**﴾ والكلمة تعني أنه كان بمقدار أمة كاملة في ثقل ايمانه ، كما يجوز أن يكون المعني أن ابراهيم أبو الأنبياء الذين شيدوا أمة الاسلام التي ختمها القرآن ومحمد.

وفي معني سادس في قوله تعالي ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ**﴾ ، أي مجموعة لكي تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وهي مجموعة حافظة للشريعة وتنوب عن المجتمع المسلم في هذه المهمة علما بان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين ولكن هذه الاشارة لاتعطي سلطة لمجموعة علي تفصيل لا يتسع له المقام.

واشارة القران ولكل امة جعلنا شرعة ومنهاجا تنطبق علي كافة المخلوقات وهو معني يلحق بالمعني الذي قدمنا.

معنى الأمة فى الاستخدام السياسى والقانونى المعاصر

الأمة هى مفهوم اجتماعى يشير إلى جماعة الشعب فى دولة، ولذلك فالامة بالمفهوم الحديث مرتبطة بالدولة، فلم يحدث أن اعتبرت جماعة الناس أمة بسبب العرق إلا الجماعات التى تنتمى إلى عرق واحد ولكنها تشتت بين الدول، فظهور الدولة استبعد القبلية والطائفية الدينية والعرقية، ولذلك صارت الولايات المتحدة التى تضم كل أجناس الأرض وديانات ومعتقدات الدنيا أمة واحدة انصهر الجميع فى نظامها القانونى والسياسى وطرائق عيشها.

والعلاقة بين الدولة والأمة تتخذ ثلاثة أشكال فى الاستخدام الحديث الذى بدأ باعتبار الدولة هى الأساس، وأنها الشخص القانونى المعتد به فى العلاقات الدولية. الشكل الأول أن تكون الأمة دولة مثل الأمة العربية التى تريد أن تقوم لها دولة واحدة تنهى تقسيمها وتفتيتها كما حدث فى خطة سايكس بيكو. الشكل الثانى هو أن يصير الجميع فى دولة واحدة أمة، لكن الدولة سبقت الأمة وصارت الدولة وعاءا للجميع الذين يشكلون معا رغم اختلافاتهم أمة واحدة. الشكل الثالث أن تضم الدولة أمما حقيقية رغما عنها كما حدث فى الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الروسية وغيرها، فلما تفتت الاتحاد

السوفيتى والاتحاد اليوغوسلافى، صارت كل أمة دولة مستقلة. ولكن الخطر يبدو فى افريقيا التى تضم قبائل وعشائر وأقليات عرقية وفى إطار دول ضعيفة وتريد كل منها أن يكون لها دولة مستقلة، وهذا الخطر قائم بسبب هيمنة الروح القبلية على إدارة الدولة والفساد والعجز عن التنمية وإنشاء نظام سياسى يستوعب الجميع بعيدا عن دعاوى التشرذم، وهو ما حدث فى جنوب السودان الذى تفاعل فيه ثلاثة عوامل لانفصاله، الأول المؤامرة، والثانى الطبيعة، والثالث عجز حكومة الخرطوم الدائم عن تقديم صيغة ديمقراطية تتلازم فيها السلطة والثروة.

خريطة العالم المعاصر لا تعرف الأمم وإنما تعرف الدول بأشكال بسيطة ومركبة، وتظل التقسيمات الاجتماعية والدينية والثقافية شؤونا داخلية.

والأمة بالمعني المعاصر لها طابع ثقافي وليس عرقيا ولذلك لاتنطبق اوصاف الامة علي القبائل والجماعات العرقية

الأمة الإسلامية والأمم المعاصرة:

قلنا أن الدول استوعبت الأمم، وقد حاولت الأمة العربية والأمة الإفريقية أن تلتئما فى دول واحدة وعجزت بسبب أزمة الدولة فى العالم الثالث، على عكس الدول الأوروبية التى حسمت هذه المسألة فاستوعب نظامها الديمقراطى كل المكونات الاجتماعية خاصة المهاجرة من مدخل الجنسية، فصارت دولها أمما، كالأمة والدولة البريطانية والألمانية وهكذا. ولكن هذه الأمم اجتماعيا تتصرف فى الخارج كدول، وهو مصطلح لم يرد فى القرآن الكريم. فإذا كانت الأمة الإسلامية تضم كل المسلمين فى العالم (الدول غير الإسلامية بالإضافة إلى المسلمين فى الدول الإسلامية). وكان مفهوم الأمة الإسلامية قد تأكد فى القرآن والسنة بشكل لا لبس فيه، وإذا كان القرآن يحض على تعاون

أعضاء هذه الأمة كما فى قوله ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ۚ﴾ وقوله ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ۚ﴾، وقوله ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ**﴾، إلى غير ذلك مما يؤكد على تماسك هذه الأمة، فإن السعى إلى وحدة الأمة الإسلامية كان هدفا أسمى لجميع المفكرين المسلمين عبر العصور. ورأى بعضهم أن وحدة هذه الأمة قد تحقق فعلا فى التجربة التاريخية منذ أنشأ الرسول دولة المدينة تجسيدا لأحكام القرآن الذى ظل يتنزل على الرسول فى المدينة ١٣ عاما حتى انتقاله إلى رحاب ربه، ثم صارت قبلة هذه الأمة السياسية هى دمشق الأموية ثم بغداد العباسية ثم القاهرة لأكثر من قرنين ثم انتقلت الخلافة إلى العثمانيين حتى قرر كمال أتاتورك إلغاءها فى مارس ١٩٢٤ فظن البعض أنه لابد من إعادة إنشاء قبلة جديدة لأمة إسلامية واحدة. وإذا كان البحث لايزال جاريا عن عاصمة هذه الأمة، فإن ثقة البعض لا تتزعزع فى وجود الأمة الإسلامية كحقيقة ليس فقط إيمانية وإنما أيضا كحقيقة عملية حيث تضم كل المسلمين فى كل أركان الأرض. فأصبح المسلم تابعا لأمته الدينية والعقدية، مع تبعيته لأمته السياسية، فإذا تناقض الولاء للأتنين فأيهما يغلب؟.

هذه الفرضية النظرية حدثت بالفعل عندما احتلت بريطانيا مع الولايات المتحدة العراق عام ٢٠٠٣، ففكر الشباب البريطانى المسلم أن ينضم إلى المقاومة العراقية للاحتلال البريطانى، وتم القبض على بعضهم بتهمة الخيانة العظمى وكانت العقوبة السجن المؤبد. ويبدو أن الشاب المسلم البريطانى يعتبر نفسه مسلما أولاً خاصة إذا كان قد وفد إلى بريطانيا واكتسب جنسيتها مباشرة أو عن طريق والديه. أما الشاب البريطانى المولد فقد يكون ولدلأب مسلم، أو اعتنق الإسلام، فكان الإسلام تاليا لجنسيته البريطانية. كما يبدو أن هذا الشاب

قدر أن هذا التعارض بين انتمائه للأمة الإسلامية التى تحتم عليه الانضمام إلى المقاومة العراقية، وانتمائه إلى الأمة البريطانية وهو ما يلزمه بأن يكون ولاؤه للأمة البريطانية، فلا يحارب جيشها: ولكن الشاب البريطانى رأى أن هناك تناقضا بين الأمة الإسلامية، أمة الآخرة التى سعى إلى مساندتها وهى تقاوم العدوان البريطانى، وبين الأمة البريطانية، أمة الدنيا، وعند الخيار بين الدنيا والآخرة،اختار الآخرة والأمة الاسلامية فتقبل حكم القضاء البريطانى بنفس راضية.

هذه الثغرة، بين أمة الدنيا وأمة الآخرة، نفذت منها المؤامرة التى جلبت الشباب المسلم من أوروبا بتشجيع الحكومات الأوروبية وقدمت لهذا الشباب المسألة بمنتهى البساطة: تنظيم يحسم وضع منتصف الطريق الذى سارت عليه التيارات الإسلامية الأخرى نحو استعادة الخلافة، ولكن التنظيم اعتمد على نصوص القرآن واعتمد أصل الدين وحقق دولة الخلافة التى تدعو إليها كل التيارات الإسلامية، كما يغذى حلما قديما عند أهل التكفير والهجرة الذين هجروا المجتمع الكافر إلى مجتمع مؤمن ولذلك تردد البعض فى تكفير هذه الجماعات رغم القسوة التى تستخدمها فى عملياتها مقرونه بأسم الله.

ونحن نعتقد أن الأمة الإسلامية أمة تجمع كل المسلمين فى كل مكان فرابطها الإيمان والإسلام، ويقابل هذه الأمة أمة تجمعها المسيحية ولكنها لاتقول بذلك لأن أوروبا توزعت بين دول أمم، وأما اليهود فيقولون أنهم شعب وليسوا أمة والدولة هى المطلوب أن تكون يهودية وليس الأمة التى لايدعونها.

ويقابل الأمة الإسلامية بنفس السياق أمم العقائد الأخرى كالشنتوية اليابانية والكونفوشية الصينية والبوذية،والهندوس والسيخ والتاوية وغيرها، ولكن أتباع هذه المعتقدات يقدمون أنفسهم خارج دولهم الأصلية باسم دولهم، ولم يدع

أحدهم أن مجموعهم يشكل أمة دينية، وينطبق نفس الشئ على الذين لا يعترفون بأى دين وتبلغ نسبة هؤلاء جميعا أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية.

ولذلك نعتقد أن الأمة الإسلامية أمة قرآنية يلهج أبناؤها بنفس التراتيل والصلوات ويتجهون فى صلواتهم إلى قبلة واحدة، ويقرأون كتابا واحدا ويصومون شهرا واحدا محددا هو شهر رمضان ويحجون في تاريخ محدد. ولبقية الشرائع السماوية والأرضية مناسك وأركان خاصة بها يشترك فيها كل من يدين بها. فإذا نزلت الأمة الإسلامية من السماء إلى الأرض وجدت الأرض وقد ازدحمت بالأمم الأرضية السياسية وهى فى نفس الوقت دول، فكيف يتعامل السامى مع الأرضي وأمة المثل والقيم مع أمم لها طابعها الثقافى والديمغرافى، حيث تتوزع الأمة الإسلامية، من خلال أعضائها على هذه الأمم/ الدول الأرضية التى تحكمها قواعد قانونية وسياسية؟.

الواضح لدينا أن قيم الإسلام يجب أن تنعكس على سلوك المسلمين فى الدول المختلفة بحيث يكونون قدوة فى هذه القيم وأن يسهموا بها فى حضارة الدول التي يقيمون فيها، فالمسلمون أتباع الإسلام، وليسوا حجة عليه بل الإسلام حجة على أتباعه ومعتنقيه.

فى التطبيق العملى عندما اتخذت بريطانيا قرارها بغزو العراق وعندما قرر العراقيون مقاومة الغزو صارت المسألة قانونية، فنحن إزاء عدوان بريطانى غير مشروع ضد دولة من حقها أن تقاوم الغزو وكل ذلك وفق القانون الدولى، وهذا الحق معقود للعراقيين أولا، ثم يجوز للأجانب مساعدتهم فى مقاومة الغزو فى قضية عادلة.وهي عادلة أيضا في الأمة الاسلامية والقرآن.

ونفس الشئ ينطبق على أفغانستان التى استغل فيها الإسلاميون لمقاومة دولة "شيوعية ملحدة" مثلما قدمتها واشنطن للاسلاميين كما لو أنه لو

كانت دولة غير شيوعية ملحدة فإنه لا يجوز مقاومتها، فقد سبق لفيتنام أن صمدت أمام الغزو الأمريكى عام ١٩٦٥ وساند حتى الأمريكيون قضية فيتنام العادلة، بل لم تجد المحاكم الأمريكية غضاضة فى إسقاط العقاب عمن فر من الجندية مادامت الحرب غير مشروعة قانونيا وأخلاقيا ولم تتم إثارة أية حجج دينية، حيث كانت واشنطن حريصة على ابتداع الحرب المقدسة الإسلامية ضد موسكو "الملحدة" لكل المسلمين كجزء من حرب واشنطن ضد موسكو تماما كما استنزفت موسكو وبكين القوة الأمريكية فى كوريا وفيتنام.

لقد اشترك فى المقاومة الفلسطينية مع القوميين إسلاميون وعلمانيون ولبراليون ويساريون وشيوعيون من جميع الجنسيات على أساس أنها قضية شعب تعرض لمؤامرة كل القرون وهى المشروع الصهيونى. على العكس من ذلك وجد بعض الإسلاميين حرجا فى تقبل مشاركة دول إسلامية فى التحالف العسكرى الدولى ضد العراق بعد غزوه للكويت عام ١٩٩١ خاصة وأن التحالف تحت قيادة الولايات المتحدة الداعمة لإسرائيل المغتصبة للأقصى.

قصة الخلافة الإسلامية:

تصر كافة التيارات الإسلامية بدرجات مختلفة على أن الأمة الإسلامية أمة واحدة ويجب أن تستعيد قيادتها للعالم تحت خلافة إسلامية.

هذا الشعار خيالى لسببين جوهريين: السبب الأول هو أن فكرة الخلافة كانت قصيرة الأجل وانحصرت فى خلفاء الرسول ﷺ الراشدين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وبعد على حولها معاوية إلى ملك عضوض وحصرها فى بنى أمية لأكثر من تسعين عاما . صحيح أن معظم الفتوحات تمت على يد الأمويين ودمشق عاصمة الدولة الإسلامية كلها، لكن مصطلح الخلافة لم يكن دقيقا، إلا إذا قصد أن تكون خلافة داخل بنى أمية. ثم جاءت الدولة العباسية

واتخذت من بغداد مقرا وأسمت نفسها الخلافة العباسية وحصرت توارث الحكم فى أسرة بنى العباس، فبغداد عاصمة الدولة الإسلامية أما الخلافة فكانت طريقة تداول السلطة، وإن اعتقد المؤرخون أن الخلافة العباسية كانت مركز العالم الإسلامى وتعمل باسمه وتنفذ الأقطار الإسلامية توجهات الخليفة وهو الذي يعين الولاة لكل الأمصار الإسلامية. وعلى كل حال انتهت الخلافة العباسية بهجوم المغول ومقتل آخر الخلفاء العباسيين المستنصر بالله احمد عام ١٢٥٨ ميلادية حيث نقلت الخلافة الرمزية إلى القاهرة بعد أن قضى ولاتها: بيبرس وقطز على الهجمة المغولية، حتى نقلها الأتراك العثمانيون إلى الآستانة بعد غزوهم لمصر عام ١٤١٧، وكان للخليفة مواقف مؤسفة إبان الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ والغريب أن منصب الخليفة تم استغلاله لصالح الدولة العثمانية، ومع ذلك عندما ألغاه كمال أتاتورك واتجه بالدولة إلى العلمانية أثار المسلمون زوبعة كبرى بأن العالم الإسلامى صار بلا قبلة سياسية، فبدأت المؤتمرات الإسلامية للبحث عن قبلة جديدة. (أنظر التفاصيل فى كتابنا: أصول التنظيم الإسلامى الدولى– القاهرة ١٩٨٨).

معنى ذلك أن فكرة الخلافة فكرة عاطفية غير واقعية وغير قابلة للتحقيق إلا فى ظل دولة مركزية تحكم الدول الإسلامية ويتم فيها تداول السلطة عن طريق الخلافة الراشدة، وهذا مستحيلفي الوضع الراهن للمجتمع الدولي الذي فقدت فيه معظم الدول الاسلامية اقدارا من استقلالها عن مراكز النظام الدولي.

السبب الثانى: هو أن العالم منقسم إلى دول، والدولة هى شخص القانون الدولى، ويمكن لعدد من الدول الإسلامية أو العربية أن تنضم إلى اتحاد كونفدرالى أو فيدرالى وهذه الاتحادات لها طابع سياسى وليس لهاطابع ديني، وحتى منظمة التعاون الإسلامى التى تضم كل الدول الإسلامية هى منظمة

إقليمية سياسية وليست منظمة دينية، بل كان إنشاؤها حتى اليوم مثار تساؤل حول رابطة الدين ومدى كفايتها لإنشاء منظمة إقليمية وهذا يفسر سر عدم الاهتمام الأكاديمى بها فى الغرب وفى العالم الإسلامى، فى ظل استتباع الغرب للدول الإسلامية الأعضاء فى المنظمة.

عندما أصدر الشيخ علي عبد الرازق كتابه "الاسلام واصول الحكم" واعتبر ان الحكم واشكاله مسالة اجتهادية لاعلاقة لها بالعقيدة هاجمه الازهريون واعتبروه منشقا علي الازهر لان موقفه فسر علي انه من قبيل التحدي للملك فؤاد الذي كان يطمح ان ينافس عبد العزيزأمير نجد حينذاك وزعماء الهند في عشرينيات القرن الماضي علي الخلافة بعد الغائها في الاستانة ، فكانت دعوته تشكيكا في وجودها أصلا في الدولة العثمانية حتي تلغي ثم يعاد احياؤها.

هذا رأي قد يصدم التيارات الاسلامية لكن عزائي أنه جاء من متخصص يحرص علي الدين وليس من شخص يغمز في الدين من قناة الخلافة مثل بعض الكتابات العلمانية او اليهودية والمسيحية(انظرلمزيد من الايضاح كتابنا سالف الذكر وكتاب سليمان فياض حول الوجه الآخر للخلافة علي العكس من اليهودي الذي ينكر الخلافة في سياق الكيد للاسلام انظر كتاب كريمر حول الخلافة الإسلامية أو الإسلام مجمعا عام ١٩٨٦ وردنا عليه في كتاب الأصول الصادر بالقاهرة عام ١٩٨٨). ولكن هذا الراي يحتم السعي إلي التعاون بين الدول الإسلامية والدفاع عن الإسلام ضد خصومه ، فالإسلام باق إلي يوم الدين حتي لو فني المسلمون طرا.